(ختم النبوة في ضوء قراءة مفهوم الحاكمية عند محمد أبو القاسم حاج حمد)

أ.م.د. محمد حمزة ابراهيم
جامعة بابل/كلية العلوم الإسلامية

أ.م.د. نزار عبد الامير تركي
جامعة كربلاء /كلية القانون

الملخص
مفهوم النبوة الخاتمة إلى جانب مفهوم الحاكمية من المفاهيم الحيوية في الفكر الاسلامي لانهما يمدان الوعي الاسلامي بمسوغات استمراريته، فهو وعي يرى نفسه وريث لخطاب السماء من جهة، ومدعو لتطبيقه في حياته من جهة اخرى، إلا أن هذين المفهومين قد يتعارضا للوهلة الأولى أو على وفق بعض القراءات، فمفهوم الخاتمية يقتضي نضج الانسان ومفهوم الحاكمية يقتضي قصور الانسان ، وهذا التعارض لا ينحل إلا بتذويب احد المفهومين لصالح الاخر.
إلا أن المفكر السوداني محمد ابو القاسم حاج حمد يقدم قراءة جديدة لمفهوم الحاكمية يتجاوز فيها اشكالية التعارض مع مفهوم الخاتمية ، بل ويجعلها تتكامل معه ونتيجة تترتب عليه، عبر تقسيمه لمفهوم الحاكمية على عدة مراحل لكل مرحلة مقتضياتها الخاصة، فتكون الحاكمية الالهية اولى هذه المراحل وخاصة ببني اسرائيل ولا تتعداهم إلى سواهم، أما الحاكمية الخاصة بأمتنا الاسلامية فهي حاكمية الكتاب البشرية وهي تقتضي نضج البشرية لتتمكن من التعمق في اسرار كتابها الكريم.
الكلمات الافتتاحية : النبوة ـ الحاكمية – الخاتمية – الكونية

Summary
The concept of final prophecy, along with the concept of hakimiyyah, is one of the vital concepts in Islamic thought because they provide Islamic awareness with the justifications for its continuity. Readings, the concept of khatmiyyah requires human maturity, and the concept of governance implies man's limitations, and this contradiction does not resolve unless one of the two concepts dissolves in favor of the other.
However, the Sudanese thinker Muhammad Abu al-Qasim Haj Hamad presents a new reading of the concept of hakimiyya, in which he overcomes the problematic of contradicting the concept of khatmiyya, and even makes it integrate with him and the result that follows from it, by dividing the concept of governance into several stages, each stage has its own requirements, so the divine governance is the first of these stages, especially Bani Israel does not transgress them to others. As for the governance of our Islamic nation, it is the rule of the human book, and it requires the maturity of humanity to be able to delve into the secrets of its noble book.

المقدمة :
اولا- أهمية البحث
مفهوم ختم النبوة من المفاهيم المركزية في الاسلام، وقد صرحت النصوص الاسلامية بخاتمية نبوة الرسول الاعظم صلى الله عليه واله ، إلا انها لم تبين الحكمة من ختم النبوة، مما فتح الباب أمام المفكرين المسلمين لمحاولة اكتشاف بعض جوانب هذه الحكمة واسرارها.
ثانياً – سبب اختيار البحث

ونظرا لكون هذا المفهوم يعد من اقوى المؤشرات على قوة العناصر الحضارية في الاسلام، فقد تم توظيفه ولو بصورة غير مباشرة من قبل الافكار والحركات الساعية إلى تطبيق الشريعة الاسلامية كنظام للحكم في الاسلام، غير أن بعض المفاهيم التي تبنتها هذه الحركات
تتعارض في جوهرها مع فكرة ختم النبوة، ومن هذه المفاهيم مفهوم " الحاكمية" في الفكر الاسلامي المعاصر، الذي أصبح مرادفاً للحكم في اصطلاح الكثير من المتأخرين ويراد به عند الإطلاق الشرعي إفراد الله بالتحكيم والتشريع ، وتفويض الحكم أليه في جميع الامور ، فهذه الفكرة على وفق حركات الاسلام السياسي المتبنية لها قائمة على منطق الوصاية على الناس، في حين أن فكرة الخاتمية تقوم على فكرة نضج البشرية وقدرتها على تحمل مسؤلياتها بعد المران الطويل الذي مرت به على يد الانبياء والرسالات.
وهنا ينبري المفكر السوداني محمد ابو القاسم حاج حمد لإعادة قراءة مفهوم "الحاكمية" قراءة جديدة مغايرة لما سبقه وتجعل منه مفهوما منسجما ومنطق خاتمية الدين الاسلامي، لذا جاء البحث على شكل مقدمة وتمهيد وثلاث مطالب وخاتمة ، تضمن المطلب الاول تجاوز المفهوم القطبي للحاكمية ، في حين تضمن المطلب الثاني مراحل الحاكمية في القران الكريم وتضمن المطلب الثالث كونية القران والخاتمية ومن ثم جاءت الخاتمة لتتضمن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

تمهيد

مسألة ختم النبوة من المسائل التي شغلت الفكر الاسلامي منذ أن تحدثت النصوص الاسلامية – منذ أن ورد المصطلح في القران وفي سنة النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) - عن الدين الخاتم وختم الرسالات السماوية بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه واله، وتجدر الاشارة إلى أن فكرة ختم النبوة هي فكرة جاءت من داخل الدين الاسلامي وليس من خارجه[١]،، الأمر الذي شغل المفسرون وأصحاب المصنفات الاسلامية لإعطاء أراء جاءت ربما غير متوافقة والمعنى الحقيقي الذي ارادته السماء ، ناهيك عن أن ارجاع هذه الحقيقة الى الديانات الاخرى هو خطأ تاريخي يجب الوقوف عنده ومعرفة موارده ، فالحكمة من ختم النبوة سر لا يعلمه إلا الله تعالى وكل ما قيل في السبب هي مجرد تأملات عقلية ليس اكثر[٢].
وفي هذا الاطار طرحت العديد من التصورات عن هذا الموضوع ومن زوايا مختلفة، فمثلا نجد أن محمد اقبال اللاهوري يرى في سياق تعليله لختم النبوة استحالة بقاء الوجود على مقود يقاد منه، وان الانسان لكي يحصّل كمال معرفته لنفسه لا بد أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو[٣]، (أن ابطال الاسلام للرهبنة ووراثة الملك، ومناشدة القران للعقل والتجربة على الدوام، واصراره على النظر في الكون، والوقوف على اخبار الاولين من مصادر المعرفة الانسانية، كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة) [٤]، فختم النبوة ليس هو امرا مفروضا من

السماء بقدر ما هو نتيجة لنمو الانسان وتكامله، فصار موقف السماء بختم النبوة بمثابة الاعلان عن بلوغ الانسان لهذه المرحلة.
في حين يعالج محمد باقر الصدر المسألة من زاوية اخرى وهي المسارات التي تسلكها البشرية في تكاملها أو تطورها، وهذه المسارات ثلاثة هي:
١- المسار العقائدي أو مسار وعي التوحيد كما يسميه.
٢- المسار الاخلاقي
٣- مسار سيطرة الانسان على الطبيعة
ووظيفة الانبياء في المسارين الاول والثاني بوصفهما المسارين المسؤولين عن تكوين الانسان الصالح، أما المسار الثالث وهو مسار سيطرة الانسان على الطبيعة فموكول للإنسان نفسه وليس من الحتم أن تتغير النبوة بين الحين والحين وفقا للمسارين الاول والثاني فيمكن أن تصل تعاليم هذين المسارين إلى ذروة كمالها بما لا مزيد عليها، أما تطور البشرية وفقا للمسار الثالث فليس من وظيفة الانبياء، ومهما تطور الانسان تقنيا فهذا لا يستدعي نبي جديد أو انزال وحي بدين سماوي[٥].

ويذهب مرتضى المطهري في تفسيره لظاهرة ختم النبوة الى أن البشرية وصلت إلى مرحلة البلوغ العقلي، فالعقول اصبحت قادرة بنفسها على استنباط الحاجات التشريعية من النص، ونلاحظ أن القران يدعو البشر إلى اعمال العقل والاستدلال والتفقه والتعلم ودراسة التاريخ والطبيعة وكل ذلك من دلائل ختم النبوة، ومن جهة اخرى فان البشرية تمكنت من الحفاظ على ارثهم السماوي ممثل بالدين الخاتم(٦).

أما محمد ابو القاسم حاج حمد فقد قارب الموضوع من زاوية اخرى ترتبط بإعادة قراءة مفهوم الحاكمية، فهذا المفهوم من وجهة نظر محمد ابو القاسم، يمثل نقطة التحول من مفهوم الرعاية السماوية المباشرة وقصور البشرية إلى مفهوم نضج الانسان وتحمل مسؤلياته، فالحاكمية تلتقي مع مفهوم الخاتمية، لأنها تأتي في سياق التحليل لهذه الخاتمية.

ولكن اللافت أن فهم موضوع الحاكمية عند محمد ابو القاسم تعارض وفهم الحركات الاسلامية التي روجت لهذا المفهوم بطريقة مغايرة، ففي الوقت الذي يفهم فيه هؤلاء الحاكمية على انها تطبيق حرفي للشريعة وتعسف في استحضار مفاهيم الدين ومقولاته في الحياة بصورة تجر إلى امتهان الانسان، وتجاهل دوره كمحور في عملية التغيير، فان حاج حمد يرى على العكس من ذلك تماما، فالحاكمية هنا هي حاكمية بشرية وليست لاهوتية، فالإنسان في ضوء هذه الحاكمية قد اعطي التخويل لإدارة حياته وصنع مستقبله، بعد أن وضع له الدين الخاتم التوصيات والمنطلقات العامة لرسم طريقه.

المطلب الاول: تجاوز المفهوم القطبي للحاكمية

فكرة الحاكمية المتداولة في ادبيات الحركات الاسلامية المعاصرة بعد اخراجها من سياقها القرآني، تعد واحدة من اخطر الافكار واشدها تطرفا، وذلك لما تحمله من دلالات تجر إلى تكفير المجتمعات الاسلامية والانظمة الحاكمة؛ لان مضمون هذه الفكرة (أن تنتزع جميع سلطات الامر والتشريع من ايدي البشر منفردين ومجتمعين، لا يؤذن لاحد منهم أن ينفذ امره في بشر مثله فيطيعوه، وليسن قانونا لهم فينقادوا له ويتبعوه، فان ذلك امر مختص بالله وحده لا يشاركه فيه احد غيره)(٧)، وترتب على هذا الفهم أن حكام المسلمين غير مسلمين، ما داموا يمارسون حياتهم على أن الحاكمية للبشر وليس لله تعالى(٨).

إنّ التسييس في الحركات الإسلامية جاء مرتبطا بمجمل الظروف التي يمر بها المجتمع والدولة في الوطن العربي؛ فاعلان زوال الخلافة احدث زلزالا فكريا، أثار المفكرين المسلمين للبحث عن أنموذج سياسي يتحققون به (وهكذا إذن أعيد إنتاج الخلافة بخطاب فكري جديد لا يتأسس على الأمة التي غابت، وإنما يتأسس على الشريعة التي اختصرت في رؤية أيديولوجية محددة هي رؤية الحاكمية كما صكها أبو الأعلى المودودي، وتبعه فيها سيد قطب فيما بعد)(٩).

فالحاكمية على وفق هذا الفهم تعني حكم الله في الأرض عن طريق تطبيق الشريعة، وهذا الهدف يتحقق بالوصول للسلطة، فضلا عن شعور هذه الحركات بان الإسلام في خطر مثل دافعا إضافيا لهم في سعيهم للوصول إلى السلطة لأجل حمايته بسلطة الدولة(١٠)، وطالما أنّ استلام الحكم السياسي يقف على رأس مطالبها التي هي الشرط التمهيدي لتحقيق برنامجها في تطبيق الشريعة، فقد تنامى في سياق هذا الاتجاه الاعتماد على العنف في التغيير(١١).

ويرى ابو القاسم حاج حمد أن المنطلقات المنطقية لفكرة الحاكمية بمفهومها السائد عند بعض الاسلاميين، تقود بشكل منطقي إلى نتائجها التي نشاهدها عند الداعين لها، وحتى الذين يشكلون اعتدالا فهو اعتدال مرتبط بتحسين الوسائل فقط وليس بتغيير المفاهيم، ولذا عندما يصلون إلى السلطة ولا يجدون مبررا لتحسين الوسائل فسوف ينساقون وراء النتيجة الحتمية لمنطق الحاكمية(١٢).

الحاكمية في السياق القطبي فهمت على انها مضمون الاستخلاف الالهي ومادته؛ لان الاستخلاف يستوجب وجود منهج وشريعة يحدد فيها المستخلف اسس وقواعد وضوابط المستخلف والحاكمية هي المحدد لهذا المنهج والموضحة لضوابط الاستخلاف(١٣)، بل أن هذه الحاكمية تضفي على السلطة الطابع الالهي والقداسة الدينية، وهذه المنطلقات هي التي استغلها الغلو الاسلامي المعاصر

والتي جعلت فصيلا من الشباب الاسلامي يبالغ في استغلال مقوماتها[١٤]، والمفارقة هنا أن هذه الحاكمية تؤسس لقطيعة مع المفهوم الفقهي السني للنظرية السياسية والتي تقوم السلطة فيها على اساس مدني أو بشري[١٥].

وطبعا لا نروم هنا تفكيك مفهوم الحاكمية والمفاهيم الحافة به مثل مفهوم الجاهلية، ومفهوم دار الاسلام ودار الكفر، فقد عرضت لذلك دراسات عديدة، إنما الذي يهمنا معالجة محمد ابو القاسم حاج حمد لمفهوم الحاكمية على اسس مغايرة لكل من سبقه، معالجة تعيد النظر بمفهوم الحاكمية نفسه من منظور قراني، وتؤسس لفهم جديد لفكرة ختم النبوة.

فليس مفهوم الحاكمية الالهية التزام التشريع أو رد التشريع إلى الله تعالى كما فهمه المودودي وسيد قطب[١٦]، (ان الحاكمية البشرية تتضمن التفاعل الانساني مع المجموع البشري دون ادعاءات التفضيل والوصايا على الاخرين ... انها حاكمية بشرية ليس من طبيعتها أن تستمد سلطانها إلا من البشر انفسهم لا من فئة تختار نفسها باسم الله أو باسم حاكميته سواء كانت هذه الفئة حاكمة أو معارضة)[١٧].

ان مشكلة اصحاب الفهم الخاطئ للحاكمية عند حاج حمد هي انهم جمدوا على النصوص الشرعية من دون استيعاب منهجية القران، وانهم لم يميزوا في فهم هذه النصوص بين ما يرجع منها إلى حقبة الحاكمية الالهية على قبائل بني اسرائيل وهي شرعة " اصر واغلال" وبين ما وجهه الله إلى المجتمع المسلم القائم على شرعة "الرحمة والتخفيف"[١٨].

وسوء الفهم هذا لمفهوم الحاكمية جر الويلات وادى الى احراق الحرث والنسل، اذ تلقفته الجماعات التكفيرية الجهادية، فانفجرت في مجتمعاتها مما انتج خرابا منقطع النظير لا تزال تعاني من تبعاته المجتمعات الاسلامية[١٩]، فان اصحاب هذا الفهم لم يميزوا بين حاكمية الهية موجهة لبني اسرائيل وحاكمية موجهة إلى المسلمين[٢٠]، وهذه الاخيرة بعيدة كل البعد عن ممارسة العنف أو الاكراه والتعسف؛ لأنها ضد التنميط القسري للحياة والانسان، واساسا فان الدين لا يدخل في قالب الايديولوجيا وان ادلجة الدين غير ممكنة أو غير جيدة، فهي غير ممكنة لان الدين بما له من خصوصيات لا يمكن اختزاله في نطاق الايديولوجيا، وهي غير جيدة لأنها

تناقض فكرة خلوده، فالأثر الذي تتركه الايديولوجيا على الدين هو أن تبديه مؤقتا وتنزع عنه صفة المرونة والخلود وتمسخه إلى خشبة يابسة يجب تكسيرها واحراقها بعد فترة تطول أو تقصر[٢١].

ولذا فان حاكمية الكتاب البشرية تؤمن أن الانسان صار مؤهلا ليحكم نفسه بنفسه مستهديا بتعاليم الدين الخاتم، وهذا ما سيتضح من خلال بيان مراحل الحاكمية وخصائص كل مرحلة في ضوء القران الكريم.

المطلب الثاني: مراحل الحاكمية في القران الكريم

يقسم محمد ابو القاسم حاج حمد الحاكمية في القران الكريم على ثلاثة اقسام كل قسم يغطي مرحلة تاريخية لها مقتضياتها الخاصة، وهذه الاقسام هي: **حاكمية الله**، و**حاكمية الاستخلاف**، و**حاكمية البشر**، ولكل مرحلة خصائصها:

فخصائص الحاكمية الالهية

١- هي حاكمية ارتبطت ببني اسرائيل، وهي التي اقتضت تقديس الارض وتفضيل الشعب وليس ذلك راجعا إلى الخصائص الذاتية للأرض أو الشعب[٢٢].

٢- الهيمنة المباشرة لله تعالى على الانسان والطبيعة معا، لذلك تميزت التجربة الاسرائيلية بكثرة الخوارق[٢٣].

٣- حكمهم بشريعة غليظة هي شريعة الاصر والاغلال وايضا عقوبات انحرافهم عن الميثاق تتناسب والعطاء الخارق، فعقوباتهم أيضا خارقة[٢٤].

٤- هي حاكمية مباشرة عبر الانبياء وليس عن طريق خليفة يتصرف من عند ذاته أي له بعض الصلاحيات[٢٥].

أما حاكمية الاستخلاف فتتسم بانها:

١- حاكمية يتدخل فيها الله تعالى بالتدخل الغيبي وليس مباشرة، أي أن طابع تدخل الله مع خليفته يأخذ صيغة التفهيم والايحاء وليس التدخل المباشر[٢٦].

٢- التحول من منطق الهيمنة المباشرة عن طريق المعجزات إلى منطق التسخير الذي يعكس تفويضا الهيا للإنسان في السيطرة على الطبيعة والكائنات، ولذا سوف تنحسر المعجزات كثيرا في هذه المرحلة[٢٧].

في حين تتميز حاكمية الكتاب البشرية بانها:

١- حاكمية الانسان خارج منهج الهيمنة الالهية المباشرة "الحاكمية الالهية"، وكذلك خارج منطق الاختيار الالهي والتسخير" حاكمية الاستخلاف"، فجوهرها التعلق الغيبي من دون معجزات خارقة، ومن دون تسخير للإنس والجن والرياح[٢٨].

٢- أن علاقة الحاكمية البشرية بالله هي علاقة تنزيه، أما علاقة الحاكميات السابقة فهي علاقة تقديس[٢٩]، ويوجد فرق بين التقديس المرتبط ببيت المقدس، والتنزيه المرتبط بالتحريم المتعلق بالبيت الحرام، فالتشريع التوراتي المرتبط ببيت المقدس يكون قوميا، أما التشريع القراني المرتبط بالبيت الحرام فيكون عالميا، والنبوة الخاتمة لا تكون إلا في الارض المحرمة[٣٠].

(فاذا ادركنا هذه الانماط الثلاثة للحاكمية عبر القران فهمنا معنى الحاكمية الالهية ومتعلقاتها وانها ليست لنا، وفهمنا معنى حاكمية الاستخلاف وقدرتها الموكلة اليها فيما هو مسخر ومرئي وغير مرئي وانها ليست لنا، ثم نفهم حاكميتنا البشرية التي تتجاوز بنا عبر الكتاب ضيق اللاهوت الجبري وضيق العلمانية باتجاه الوعي الكوني المطلق، فالمرحومان المودودي وقطب اشاعا بين المسلمين ما هو ليس من دينهم ونهجهم من دون أن يدركا ذلك)[٣١].

أما الحكمة من هذا التدرج فيرى حاج حمد في التجارب الاسرائيلية بالذات ان الله قد تدرج بالإنسان ليصبح قادرا على التفاعل والاستجابة لفعل الله في مسيرة الحركة الطبيعية والبشرية، واوضح له ابعاد الهيمنة الالهية في الزمان والمكان ضمن تقدير دقيق، وأوضح الله للإنسان ضرورة أن يأتي تصرفه في تجربته الوجودية مطابقا لمنهج الخلق الكوني القائم على الرحمة والتسخير، فيضيف الانسان فعله إلى فعل الله وينسج على قاعدته الكونية، في حين أن الله قد ابتدأ مع محمد بدرس كان نهاية الدروس لدى اخرين، أي الجمع بين الغيب والواقع في الحركة الطبيعية والبشرية ومستهدية بالمنهج الالهي الكوني[٣٢].

ولذا فان مرحلة الحاكمية البشرية هي اخطر مرحلة تناولها الخطاب الالهي للبشرية منذ خطاب الحاكمية الالهية وحاكمية الاستخلاف، فالله تدرج بالبشرية لتحكم نفسها، وتلك غاية الخلق وهي غاية انتهى الله إلى تأسيسها على يد خاتم النبيين[٣٣]، فعلى هذا يكون رسول الله صلى الله عليه واله قد جاء بين مرحلتين تاريخيتين من عمر البشرية، الأولى هي مرحلة النبوات التي ارتبطت بالتعامل المباشرة مع الغيب، والثانية مرحلة تطور الانسان نحو الاساس الوضعي لحركة الاشياء وعلاقاتها[٣٤].

ومن جهة نوعية الخطاب أيضا يوجد نوعان من الخطاب لابد أن نميز بينهما هما: الخطاب الاصطفائي الحصري، والخطاب العالمي، فكل الخطابات السابقة على محمد صلى الله عليه واله وصولا إلى ادم عليه السلام هي خطابات حصرية اصطفائية موجهة إلى اقوام محددة يصطفيها، أما مع رسول الله صلى الله عليه واله فينتهي الخطاب الاصطفائي لينطلق الخطاب العالمي، وهو خطاب يرتبط بالارض المحرمة (مكة)، وليس الارض المقدسة، ويرتبط بالقران المحفوظ الذكر، وليس بغيره من الكتب، ولذا فان ختام النبوة ليس مجرد توقيت زمان فحسب، وان كان لهذا التوقيت تقديراته الالهية، ولكنه أيضا مرتبط بتقديرات موضوعية[٣٥].

المطلب الثالث: كونية القران والخاتمية

ان من يفهم حكمة انقضاء مرحلة النبوات سيفهم تماما أن الله قد جعل ارادته في اعادة اكتشاف القران وفهمه ضمن كل مرحلة من مراحل التطور البشري بما ينسجم والخصائص الفكرية لهذه المرحلة [٣٦]، وعليه يرى محمد ابو القاسم حاج حمد أن رسول الله صلى الله عليه واله لم يورثنا

تفسيرا، ولو توارثنا تفسيرا عن الرسول فإننا لا نكون في الحقيقة قد توارثنا إلا ما اوحي به في نطاق تلك المرحلة من الكتاب، فتكون الخطورة اغلاق التفكير في نصوص الكتاب، طبقا لمناهج معرفة المراحل المتقدمة وحاجاتها، لان التفسير الرسولي سيكون أيضا هو التفسير الخاتم، ولن يأبه الناس لقول القران بان ذلك التفسير هو لما كان بين يديه في حاضره وماضينا، فلهذا السبب لم يورث الرسول الموقر تفسيرا يكون بالضرورة خاتما [٣٧].

والقران الذي جاء به النبي الخاتم يبقى يمتلك قابلية تسديد البشر لان القران (يتكشف عن تركيبه تعلو على اسباب النزول المحلية وتعلو على البناء اللفظي المجرد وتعلو على خصائص المحلية العربية الامية، أي انه يتحول في عصرنا إلى كتاب جديد يحمل كل ابعاد الفكر الكوني)[٣٨]، فمن خصائص القران الكريم انه يقدم مؤشرات منهجية كونية للخليقة كما يذهب لذلك حاج حمد[٣٩].

وهو يتحدث عن منهجية وضعية خاصة يسميها "الوضعية الدينية" تمييزا لها عن الوضعية المادية، ويعرفها بانها (الفهم البشري للقران مقيدا إلى الخصائص الفكرية لوعي مفهومي تاريخي محدد)[٤٠]، فالقران وان كان بذاته نصا ثابتا إلا أن فهمه سيال متغير يتجدد على الدوام،

ومن ثم فان من حق كل عصر أن ينتج فهمه القرآني الخاص، بعيدا عن الزامات بقية العصور[٤١]، (فان من خصائص مرحلتنا التي بدأت بالنبوة المحمدية، انها اختتمت مرحلة كاملة قبلها واتجهت نحو الوضعية العلمية وانزواء التفكير الغيبي وتطور ملكات الانسان الذاتية)[٤٢].

ان الانسان في مرحلة النبوة الخاتمة اصبح في مجال المعرفة التي تؤسس الرؤية الكونية امام مصدرين للمعرفة، الوحي والعقل، فعبر الوحي يقدم الاسلام اصالته على مر الزمان، وعبر العقل يقدم الاسلام رؤيته المتجددة، ومن خلال هذين المصدرين يكون الانسان مرتبطا بالوحي مهتديا بهداه، وفي الوقت نفسه موظفا للعقل في الوصول إلى اهداف هذا الوحي ورؤيته للحياة[٤٣].

ومن ادوات الفهم المتجدد للقران هي تحرير القران الكريم من الفهم المقيد بأسباب النزول، فيدعو حاج حمد إلى اعادة ترتيب سور القران وذلك اخراجا للقران من التقييد الاجتماعي والتاريخي إلى الاطلاق العالمي ليتفاعل مع مختلف مناهج المعرفة ومختلف الحقول الثقافية العالمية[٤٤].

ويستدل على ذلك بان النبي صلى الله عليه واله اعاد ترتيبه في السنوات الاخيرة من حياته ليخرجه من التعيين المقيد إلى اسباب النزول، إلى الاطلاق المخاطب لكافة العقول البشرية، فالترتيب حسب النزول من سورة العلق إلى اية (اليوم اكملت لكم دينكم)[المائدة: ٣]، أما الترتيب المعاد فيبدا من الفاتحة وينتهي بالمعوذتين، وهذا اعادة ترتيب كان بإشراف جبرئيل عليه السلام، وعلى ذلك نص القران الكريم (واذا بدلنا اية مكان اية)[النحل: ١٠١]، فهنا يحدد سبحانه حالتين قضت الأولى بالنزول طبقا للمناسبات وهي حالة (تثبيت) الايمان[٤٥]، فلم يكن لدرس القران أن يجد طريقه إلى قلوب الناس وضمائرهم لو لم يكن نزوله تبعا لأمثلة الحياة نفسها والواقع المحيط بهم[٤٦]، وقضت الثانية باعادة ترتيب الآيات لغاية مستقبلية[٤٧] (وهدى وبشرى للمسلمين)[النحل: ٨٩]، والبشرى هي دوما تشير لحالة مستقبلية اقتضت الخروج بنسق البنائية القرآنية عن التقييد بالاسباب الظرفية إلى المنهجية العضوية التي يتناولها في كليتها العقل المستقبلي[٤٨]، (فحدد نوعية ذلك الوحي مقيدا إلى زمانه (مصدقا لما بين يديه)[ال عمران:٣]، وما بين يدي الشيء هو حاضره ثم اطلق الله مكنون الكتاب المجيد بكرم الكتاب للمراحل التاريخية اللاحقة بمنطق التوريث لا الوحي الذي انقطع بخاتم النبيين) [٤٩].

فهي عملية اكتشاف جديد لنص قديم وذلك بإعادة فهم النصوص على اساس منهجية التركيب القرآني .

ولكن تبقى دعوة ابو القاسم حاج حمد لإعادة ترتيب القران، مجرد دعوة نظرية تكتنفها العديد من العقبات، فهو لم يقدم أمثلة تطبيقية لذلك، فهي مجرد دعوة للتعبير عن القابلية المكنونة في القران، ولكن محاولة الكشف عن هذه القابلية لا تضطرنا لإعادة ترتيب آياته وسوره، فالقران الكريم يختزن هذه القابلية عبر عمق مفاهيمه ودقة اشاراته ورحابة فضائه التأويلي[٥٠]، فضلا عن انعدام من يمتلك صلاحية اعادة ترتيبه بعد أن استقر في وعي المسلمين ومدوناتهم بصورة نهائية.

فاذا الكتاب الخاتم للنبوة الخاتمة يوفر السعة والعمق المطلوبان لرفد مرحلة حاكمية الكتاب البشرية، هذه الحاكمية التي تعتمد القابلية العقلية للإنسان، وقدرته على استحضار النص القرآني ليكون له حضورا ناطقا وحيويا في مشاكل الانسان اليومية واسئلته الحضارية والكونية الكبرى على حد سواء .

الخاتمة

خلص البحث إلى نتائج اهمها:

١- حضي مفهوم ختم النبوة باهتمام المسلمين وتنظيراتهم، فقد طرحت عدة تحليلات لمفهوم الخاتمية في الاسلام ركز بعضها على خصائص الاسلام العالمية، وبعضها على النضج العقلي للبشرية، إلا أن هذه المعالجات قد تتكامل مع مفاهيم اخرى متداولة في فضاء الفكر الاسلامي وقد تتقاطع معها ومفهوم الحاكمية انموذج على ذلك.

٢- حاولت الحركات الاسلامية الاتكاء على مفهوم الحاكمية في تحركاتها السياسية، وذلك ضمن رؤيتها الأيديولوجية لهذا المفهوم، الامر الذي جر إلى تحويل الحاكمية إلى نوع من منطق الوصاية على الاخرين، مما يتعارض مع جوهر فكرة الخاتمية في الاسلام.

٣- سعى المفكر السوداني محمد ابو القاسم حاج حمد إلى اعادة موضعة مفهوم الحاكمية في القران الكريم، وتقديم قراءة جديدة للحاكمية مغايرة لما تذهب إليه الحركات الاسلامية.

٤- يؤشر حاج حمد إلى ثلاثة اقسام لمفهوم الحاكمية بحسب المنظور القرآني، ولكل قسم خصائصه الموضوعية التي تناسب مرحلة تاريخية معينة، تبدأ بالحاكمية الالهية المباشرة، ومن ثم حاكمية الاستخلاف وصولا إلى حاكمية الكتاب البشرية، وذلك بعد دراسة السياقات والقرائن المرتبطة بهذه المفاهيم في الكتاب العزيز.

٥- مرحلة حاكمية الكتاب البشرية تقوم على ركنين: الاول نضج العقل الانساني، والثاني رحابة كتاب الله الخاتم بخصائصه الكونية وبما يكتنزه من عمق معرفي، اذ يمكن طرح عدة مناهج واساليب في طريقة التعامل الحضاري مع القران كما سعى لذلك محمد ابو القاسم حاج حمد، وهذه الحاكمية هي المنسجمة منطقيا مع مفهوم خاتمية الرسالة الاسلامية.

الهوامش :

(١) ينظر: سروش، عبد الكريم، بسط التجربة النبوية، ترجمة، احمد القبانجي، سلسلة ثقافة اسلامية معاصرة، ص٢٠٩.

(٢) ينظر: اليزدي، محمد تقي مصباح، النبوة في القران، تعريب، محمد عبد المنعم الخاقاني، قم، ط١، ١٤٢٦هـ، ص٢٨٤.

(٣) ينظر: اللاهوري، محمد اقبال، تجديد التفكير الديني في الاسلام، تحقيق وتعريب، محمد حسن زراقط وعباس محمود، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٠، ص٢١٦.

(٤) اللاهوري، محمد اقبال، تجديد التفكير الديني في الاسلام، ص٢١٦.

(٥) ينظر: الصدر، محمد باقر، اهل البيت وحدة هدف وتنوع ادوار، مؤسسة ام القرى، دار الهدى- قم، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦، ص ٤٣ وما بعدها.

(٦) ينظر: مطهري، مرتضى، ختم النبوة، ترجمة، عبد الكريم محمد، دار المحجة البيضاء، بيروت، (د.ت)، ص٤٠- ٤٤.

(٧) المودودي، ابو الاعلى، نظرية الاسلام السياسية، دار الفكر، ١٩٦٧، ص٢٧.

(٨) ينظر: خلف الله، محمد احمد، الصحوة الاسلامية في مصر، ندوة ضمن كتاب الحركات الاسلامية المعاصرة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٥، ٢٠٠٤، ص٦٢.

(٩) زيادة، رضوان جودت، سؤال التجديد في الخطاب الإسلامي المعاصر، ص٣٤٠.
(١٠) ينظر:المصدر نفسه، ص١٩٩.
(١١) ينظر:الكيلاني، شمس الدين، الجماعة وتحولاتها في فكر رضوان السيد، ص١٩٨.
(١٢) ينظر: حمد، محمد ابو القاسم، الحاكمية، مراجعة وتحقيق، محمد العاني، دار الساقي، بيروت-لبنان، ص٤١.
(١٣) ينظر: عوض، هشام احمد، الابعاد السياسية لمفهوم الحاكمية، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، ص١٢٥.
(١٤) ينظر: عمارة، د. محمد، مقالات الغلو الديني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، ص٢٨.
(١٥) ينظر: عماد، عبد الغني، حاكمية الله وسلطان الفقيه، دار الطليعة بيروت، ط٢،٢٠٠٥، ص١٩.
(١٦) ينظر: الحاكمية، ص٤٥.
(١٧) الحاكمية، ص١٣١.
(١٨) ينظر: الحاكمية، ص١٣١.
(١٩) ينظر: شحرور، محمد ، الدين والسلطة، دار الساقي، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٤، ص٦٣.
(٢٠) ينظر: الحاكمية، ص١٣١.
(٢١) ينظر: الهلالي، عماد، الفكر العلماني في ايران الاسلامية، دار الانتشار العربي، بيروت-لبنان، ٢٠١٢، ص٦٨.
(٢٢) ينظر: الحاكمية، ص٤٨.
(٢٣) ينظر: الحاكمية، ص٤٨.
(٢٤) ينظر: الحاكمية، ص٤٨، ص٥٢.
(٢٥) ينظر: الحاكمية، ص٥٣.
(٢٦) ينظر: الحاكمية، ص٥٧، ص٦٣.
(٢٧) ينظر: الحاكمية، ص٦٣.
(٢٨) ينظر: الحاكمية، ص٧١، ص٨٥.
(٢٩) ينظر: الحاكمية، ص٧٨.
(٣٠) ينظر: حاج حمد، محمد ابو القاسم ، جدلية الغيب والانسان والطبيعة العالمية الاسلامية الثانية، دار الهادي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م، ص٣٣٩.
(٣١) الحاكمية، ص٣٥.
(٣٢) ينظر: جدلية الغيب والانسان والطبيعة العالمية الاسلامية الثانية، ٣٢٢-٣٢٣.
(٣٣) ينظر: الحاكمية، ص٧١.
(٣٤) ينظر: الحاكمية، ص٨٨، وص١١٨.
(٣٥) ينظر: حاج حمد، محمد ابو القاسم ، منهجية القران المعرفية، سلسلة قضايا اسلامية معاصرة، دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص٤٨-٥١.
(٣٦) جدلية الغيب والانسان والطبيعة العالمية الاسلامية الثانية، ص٣٧٧.
(٣٧) حاج حمد، محمد ابو القاسم ، حرية الانسان، مراجعة وتعليق، محمد العاني، دار الساقي، بيروت –لبنان، ط١، ٢٠٠١٢، ص٨٨.
(٣٨) حاج حمد، محمد ابو القاسم، الازمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، سلسلة قضايا اسلامية معاصرة، دار الهادي، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، ص١٣٢.
(٣٩) ينظر: حاج حمد، محمد ابو القاسم ، ابيستمولوجيا المعرفة الكونية، ، دار الهادي، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، ص٨٨.

(٤٠)حاج حمد، محمد ابو القاسم ، القران والمتغيرات الاجتماعية، دار الساقي، بيروت- لبنان، (د.ت)، ص١٣٠.
(٤١) ينظر: كسار، جواد علي ، المعاصرة القرآنية رؤية على ضوء المدرسة الوجودية، ضمن كتاب قراءات معاصرة في النص القرآني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص٥٨.
(٤٢) محمد ابو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والانسان والطبيعة العامية الاسلامية الثانية، ص٣٧٦.
(٤٣) دوير، د.هاجر، علم الكلام المعاصر في ضوء المتغيرات الحديثة، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠١٢، ص٢٢٩.
(٤٤) ينظر: القران والمتغيرات الاجتماعية، ص١٣٠.
(٤٥) ينظر: حرية الانسان، ص٨٧.
(٤٦) ينظر: بن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق، ط٩، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص١٨١.
(٤٧) عن ترتيب القران وجمعه، ينظر: السيوطي، جلال الدين الاتقان في علوم القران، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، وزارة الشؤون الاسلامية، المملكة العربية السعودية، ج١، ص١٧٢، وايضا: الجابري، محمد عابد ، المدخل إلى القران الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧، ج١، ص٢١٣.
(٤٨) ينظر: جدلية الغيب والانسان والطبيعة العامية الاسلامية الثانية، ص٣٤٦-٣٤٧.
(٤٩) حرية الانسان، ص٨٧.
(٥٠) عن بعض المحاولات والاتجاهات التأويلية، ينظر: التأويل والهرمونطيقا دراسات في القراءة والتفسير، مجموعة من المؤلفين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، ٢٠١١، وايضا مجلة التأويل: القران الكريم وافاق التأويل، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، العدد (١)، ٢٠١٤ .

قائمة المصادر

- أبن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق، ط٩، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
- الجابري، محمد عابد ، المدخل إلى القران الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧.
- حاج حمد، محمد ابو القاسم ، ابيستمولوجيا المعرفة الكونية، ، دار الهادي، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
- حاج حمد، محمد ابو القاسم ، القران والمتغيرات الاجتماعية، دار الساقي، بيروت- لبنان، (د.ت).
- حاج حمد، محمد ابو القاسم ، جدلية الغيب والانسان والطبيعة العالمية الاسلامية الثانية، دار الهادي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م.
- حاج حمد، محمد ابو القاسم ، حرية الانسان، مراجعة وتعليق، محمد العاني، دار الساقي، بيروت –لبنان، ط١، ٢٠٠١٢.
- حاج حمد، محمد ابو القاسم ، منهجية القران المعرفية، سلسلة قضايا اسلامية معاصرة، دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- حاج حمد، محمد ابو القاسم، الازمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، سلسلة قضايا اسلامية معاصرة، دار الهادي، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
- حمد، محمد ابو القاسم، الحاكمية، مراجعة وتحقيق، محمد العاني، دار الساقي، بيروت- لبنان.
- خلف الله، محمد احمد، الصحوة الاسلامية في مصر، ندوة ضمن كتاب الحركات الاسلامية المعاصرة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٥، ٢٠٠٤.
- دوير، د.هاجر، علم الكلام المعاصر في ضوء المتغيرات الحديثة، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠١٢.

- زيادة، رضوان جودت، سؤال التجديد في الخطاب الإسلامي المعاصر.
- سروش، عبد الكريم، بسط التجربة النبوية، ترجمة، احمد القبانجي، سلسلة ثقافة اسلامية معاصرة.
- السيوطي، جلال الدين الاتقان في علوم القران، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، وزارة الشؤون الاسلامية، المملكة العربية السعودية.
- شحرور، محمد ، الدين والسلطة، دار الساقي، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٤.
- الصدر، محمد باقر، اهل البيت وحدة هدف وتنوع ادوار، مؤسسة ام القرى، دار الهدى- قم، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦.
- عماد، عبد الغني، حاكمية الله وسلطان الفقيه، دار الطليعة بيروت، ط٢، ٢٠٠٥.
- عمارة، د. محمد، مقالات الغلو الديني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.
- عوض، هشام احمد، الابعاد السياسية لمفهوم الحاكمية، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- كسار، جواد علي ، المعاصرة القرآنية رؤية على ضوء المدرسة الوجودية، ضمن كتاب قراءات معاصرة في النص القرآني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- الكيلاني، شمس الدين، الجماعة وتحولاتها في فكر رضوان السيد.
- اللاهوري، محمد اقبال، تجديد التفكير الديني في الاسلام، تحقيق وتعريب، محمد حسن زراقط وعباس محمود، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٠.
- مجموعة من المؤلفين، التأويل والهرمونطيقا دراسات في القراءة والتفسير، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، ٢٠١١.
- مجلة التأويل: القران الكريم وافاق التأويل، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، العدد (١)، ٢٠١٤ .
- مطهري، مرتضى، ختم النبوة، ترجمة، عبد الكريم محمد، دار المحجة البيضاء، بيروت، (د.ت).
- المودودي، ابو الاعلى، نظرية الاسلام السياسية، دار الفكر، ١٩٦٧.
- الهلالي، عماد، الفكر العلماني في ايران الاسلامية، دار الانتشار العربي، بيروت- لبنان، ٢٠١٢.
- اليزدي، محمد تقي مصباح، النبوة في القران، تعريب، محمد عبد المنعم الخاقاني، قم، ط١، ١٤٢٦هـ.